مجلة الرائد

العدد : ٢٤٣ الموافق في ربيع الأول ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٥ ميلادي

عنوان المقال : أمتنا أمام الحضارة المؤحِّدة حوار أم صدام ؟	الكاتب : د. العربي بوعياد

لا أريد أن أقف عند الأحداث المصيرية التي تتسارع في عالمنا على أوسع نطاق ، والتي تضعنا وتضع أمّتنا أمام تحديّات جسام تعدنا بالمزيد من التهميش والضياع ، بل تهددنا بالزوال والاندثار... إنما أريد أن أحدد الموقف من موضوع العلاقة بين الحضارات، في عصر فترت فيه حضارتنا وهيمنت فيه حضارة أخرى، حضارة الغرب. لعل تحديد هذا الموقف يسهم في تحديد دورنا الكبير ورسالتنا خلال هذه الأيام وفي أي مكان من هذا العالم.

لقد حاول بعض المفكرين الأمريكيين قبل ما يزيد عن السنة[1]، أن يضفوا نوعاً من الشرعية على تصرفات مسؤولين منهم. أصدر هؤلاء المفكرون، الذين بشّر بعضهم بنهاية التاريخ وأنذر آخرون بصدام الحضارات، أصدروا خطاباً لنا ولمفكرينا، يبرزون الجانب الأخلاقي لحربهم الجديدة بأسلوب فلسفي يعتمد الفوقية ، ويملي على المسلمين طريقة جديدة لاعتناق دينهم تمنحهم قابلية الاندماج في الحضارة الحديثة. وقد ردّ على هذا الخطاب مفكرون منهم ومفكرون منا. إلا أنني سأركز حديثي حول مفهوم الحضارة وعواملها ومسألة العلاقة بين الحضارات بداية من عبارة "حوار الحضارات"، تمهيداً لتحديد موقفنا من الحضارة السائدة ودورنا فيها.

جاء في لسان العرب أن الحوار هو الجواب والمحاورة المجاوبة والتحاور هو التجاوب. فمن صفات الحوار التجاوب بين المتحاورين، فلا يكون الحوار بين اثنين إلا إذا حصل التجاوب بينهما:

فكيف يمكن أن يقوم حوار بين حضارتين لا تجاوب بينهما ؟

كيف يقوم حوار بين حضارة استيقنت أنها تملك كلّ شيء، وأخرى تعيش حالة ضياع شامل، وهي تبحث عن هويتها، وتعاني من تشتت كل مكوّناتها ؟

وكيف يكون ذلك وهذه قائمة والأخرى غائبة ؟

جاء في القاموس المحيط أن الحضارة ضد فعل" غاب ."وفي المعجم الوسيط، الحضارة تعني الإقامة في الحضر وأنها مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر. ولفظ الحضارة

١- _____

*** -أنظر مقال لجمعة المغربي -"تأحيد الأمم والحضارات"، الرائد ١٠٠، شوال ١٤٠٧هـ/يونيو ١٩٨٧م، ص ١٤ إلى١٧- الذي يقصد بالتأحيد : صهر الحضارات والأمم في قالب واحد بغض النظر عن اختلافاتها ومميّزاتها، وكذلك احتواء جوهرها ؛ انطلاقاً مما قرره ابن منظور في اللسان : المتأحّد من الرجال الذي لا يُعرف نسبه ولا أصله.**

1) في فبراير ٢٠٠٢م.

في اللاتينية **civilisation** ، مشتق من كلمة **civtas** بمعنى المدينة. كما يستعمل البعض كلمة **culture**، الثقافة، على أنها مرادفة للحضارة، فيكون حوار الحضارات هو حوار الثقافات ؛ وقد يُستعمل لفظ "الحضارة" بمعنى أعم أو أخص، فيكون حوار الثقافات جزءاً من حوار الحضارات أو العكس. ولو تناولنا المصطلح بالتصور الإسلامي للدين الذي يشمل مفهومه كل جوانب حياة الإنسان، فيكون مدلول "حوار الحضارات" مرادفاً لمدلول "حوار الأديان."

و أياً كان المصطلح الذي ينبني عليه لفظ "الحضارة"، يمكن أن نؤسِّس لهذا المفهوم ونقر أن لكل حضارة عواملها الأساسية، أوالجوهرية، وتجلّياتها في الزمن والمكان. إذ أن عقيدةَ شعبٍ وفكرَه ولغتَه ومجموعة أنظمتِه ونظرتَه إلى الحياة والكون، هي بمثابة الثوابت المرجعية لكل مجالات الحياة المعبر عنها في إطار الحضارة. أما تجليات هذه العوامل في الزمان والمكان، فمجالها جغرافي يقوم فيه عمران الحضارة، ويتشكل فيه تاريخها ومشاركتها في الفعل البشري الشامل .

ولن يكون التعبير عن العوامل الجوهرية في الزمان والمكان إلا من خلال المحور الرئيسي لأي حضارة، ألا وهو الإنسان والتجمع البشري الذي ينتمي إليه.

إن الله تعالى أبدع الكون كلّه وكرّم الإنسان واستخلفه في الأرض ، وجعله المحورَ الأساسي الذي له إرادة تفعيل كل عوامل الحضارة. كما قضى الله تعالى بإخراج أمةٍ للناس قائمةٍ بالقسط شاهدةٍ عليهم. وشهودُ هذه الأمة حاصلٌ بمقتضى قيام حضارتها ؛ وهذه الأمةُ هي بدورها مضبوطةٌ بشهود الأسوة الحسنة صلى الله عليه وسلم عليها .فإن كانت الأمةُ قادرةً على تفعيل عواملها الجوهرية والتعبير عنها في الزمان والمكان، قامت حضارتها منارةً تضيء نهج المحجة البيضاء لباقي الأمم. وإن لم تكن في مستوى هذا التفعيل غابت حضارتها، فلا هي تزيد في العمران وفق قدراتها الخاصة، ولا هي تصنع التاريخ وفق قيمها الحية.

وعموماً، فإن تحقق الحضارة بالحضور في المكان هو نهوضها بالفعل العمراني على أوسع نطاق ؛ كما أن تحققها بالحضور في الزمان هو نهوضها بالفعل التاريخي على أعمق وجه. ومتى أخذنا

بهذا الشرط المزدوج، فلا مفر من أن نقر، كما أقر الفيلسوف المغربي عبد الرحمان طه[2]، بأن الحضارة التي تنهض بهذين الفعلين ـ "الفعل العمراني الأوسع" و"الفعل التاريخي الأعمق" ـ في عالمنا اليوم هي الحضارة الغربية وحدها وليس غيرَها، مما جعلها تسود على غيرها بما فيها حضارة المسلمين.

لكن فتورَ حضارتنا بكل ما يترتب عنه من مفاسدَ ومخاطر، لا يعني غيابَ أمتنا. فإن كان للأمم زوال واندثار، فإن أمة المسلمين لا تزول ولو فترت حضارتها ؛ ذلك راجع لعامل أساسي من عواملها الجوهرية، ألا وهو القرآن الذكر. إن الوحي هو المرجع المحفوظ والمسدد للمسار الدائم للأمة ولو انحصرت مسيرة حضارتها، و يكون ذلك من خلال طائفة غير مُبدِّلة قائمة على الحق مؤدية ما تطيقه من الشهود والحضور رغم غياب الفعلين على المستوى اللاّزم، "الفعل العمراني" و"الفعل التاريخي"، من قبل الأمة.

وهكذا، نكون قد صادفنا الصواب إن قلنا أن الأمة عند المسلمين لها من الحيوية ما يضمن انبعاث حضارتها كلما ارتقت طلائعها إلى مستوى تفعيل عواملها الجوهرية في العالم والعصر ؛ فحينئذ، تعود حضارة المسلمين لتؤدي رسالتها بين الأمم والحضارات، تُحقق حضورَها في العالم بالفعل العمراني على أوسع نطاق وفق قدراتها الخاصّة، وتنجز حضورَها في العصر بالفعل التاريخي على أعمق وجه وفق قيمها الحية. ويكتمل آنذاك الشهود الخارجي من قبل أمة المسلمين على الأمم، مع الشهود الداخلي الذي لا يفتر في الأمة من قبل الطائفة القائمة على الحق.

عندئذ تستكمل الحضارة عواملَها الأساسية وتجلياتها في الزمان والمكان لتستأنف إشعاعها وتزاول قيادة البشرية بالخيرية والقسطية نحو الحرية والسلم والرشاد.

وبما أن حضارةَ المسلمين اليوم غائبةٌ وحضارةَ الغرب شاخصةٌ، فلا يمكن أن نتصور حواراً بين غائب وحاضر. وباعتبار أن ثقافة المسلمين محفوظةٌ في الذاكرة والتاريخ، فلا يمكن أن يقوم سوى "حوار الثقافات"، لأن الثقافة لا يشترط فيها الشهود العمراني والشهود التاريخي، بل يكفي فيها وجود

١ـ

[2] " الحضارة المتوحدة والإرهاب المتعدد" في ندوة نظمها نادي الفكر بالرباط في نهاية شهر دسمبر ٢٠٠٢م تحت عنوان : "حوار الحضارات ."

الذاكرة : [3]

فكيف يمكن أن يحصل الحوار بين الثقافات في عالم تسود فيه حضارة واحدة هاجسها إدخال الأمم الأخرى في قالب التأحيد وفلك التبعية ؟

كيف يمكن أن يقوم حوار في ظل الالتباس والتشويش الذي يضفيه مصطلح الإرهاب على كل مقاومة لتيار التأحيد ؟

فلا حوار مع التفرد الحضاري لكونه نفياً للغير، باعتبار ذلك الغير في درجة أدنى ؛ ونفي الغير نهاية للحوار. ولا حوار مع وجود إرهاب، لأن العنفَ نقيض الحوار. والتأحيد مآله الزوال تماماً كمآل الإرهاب.

إن الاختيارات التي كانت في عصر نهضة الغرب هي قرارات اتخذها المفكرون الذين أسسوا للحداثة[4]. وهذه القرارات هي التي أنتجت الحالة التي يعانيها الغرب والعالم حوله، الإنسان المُجتث بعملية التأحيد .ولم يبق شاخص أمام هذه الحضارة العارمة سوى طائفة من أمة المسلمين، لا تأثرت بروحها الاستهلاكي ولا خضعت لتأحيدها الفكري.

ويمكن أن نختزل أهم اختيارات عصر التنوير في ثلاث:

1- الاشتغال بالإنسان وترك الاتصال بالله ؛

2- التوسل بالعقل وترك التوسل بالوحي ؛

3- التعلق بالدنيا وترك التعلق بالآخرة.

فلا مفر من أن نقر أن هذه الاختيارات هي بمثابة الطلاق الثلاث للإله والوحي والآخرة. قرارات وخيارات تتحكّم بهذه الحضارة التي كبّلت الإنسان في هذا العصر جعلته شديدَ التمسك بالعاجل، واهنَ التمسك بالآجل. وأي اختيار للإنسان كهذه القرارات والمواقف المتحدية للإرادة الإلهية لا بدّ أن تنقلبَ نتائجُه بالضرر عليه وتوقعه فيما فضحه به القرآن:

١-

[3] يؤكد الأستاذ عبد الرحمان طه، في نفس المرجع، أنه بالإمكان أن يوصل المشهود بالمذكور ويستند الحاضر على الماضي.

[4] أنظر مقال لجمعة المغربي، "المعاصرة والعصرانية"، الرائد ٨٦، ص٢٦ إلى ٢٩، ربيع الثاني ١٤٠٦هـ/ديسمبر ١٩٨٥م.

عنوان المقال : أمتنا أمام الحضارة المؤجّدة حوار أم صدام ؟	الكاتب : د. العربي بوعياد

{.. ***وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا أنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون*** } [البقرة : ١٢]

وحيث يظن ويعوّل الإنسان أن هذا الاختيار يؤدي إلى منافع ومصالح، ينقلب إلى ضده تبعاً لسُنة انقلاب الأفعال إلى نقيضها، "*فيعاقب الإنسان*، كما يقول الأصوليون، *بنقيض مقصوده*: "

- الحرية تنقلب إلى رقّ واستعباد ؛
- الصحة تنقلب إلى مرض[5] ؛
- العلم ينقلب إلى جهل[6] ؛
- التقدم ينقلب إلى تأخر ...

انقلبت القيم إلى ضدها:

- يرفضون عبادةَ أكملِ كامل، وهو الحقُّ سبحانه وتعالى، فانقلبوا إلى عبادةِ أنقص ناقص، وهو الشيطان والعياذ بالله[7] ؛
- يرفضون صيانة النفس حفظَها، فانقلبوا إلى تقتيلها وتشريدها ؛
- انقلب إغناء الإنسان إلى إفقاره ؛
- وانقلب تنويع وترسيخ الإنسان إلى تأحيده واجتثاثه...

فالإنسان الذي يلهو عن الخالق سبحانه، يُعرض الله عنه ويكون مآله تشتت مقوّماته، لأن الإنسان كلٌّ وليس فقط ماديات. وهكذا تنقلب جميع طاقات الإنسان إلى حالة من التشتت والضياع.

وخلاصة القول:

إن مفهوم "الحضارة" في عبارة "حوار أم صدام الحضارات" مصطلح إجمال في غير تفصيل وتشويش في غير بيان. فقد يكون حوار الثقافات هو عين حوار الحضارات أو جزءاً منه، وقد يكون حوار الحضارات هو حوار الأديان في إطار شمولية الدين. وللحضارة عواملها الأساسية وتجلّياتها في

١ - _____

[5] وظاهرة مرض فقدان المناعة (الأيدز) غنية عن أي تعليق.
[6] كالاستنساخ مثلاً.
[7] وصل الأمر هذه الأيام إلى ظهور عبدة الشيطان في بلاد المسلمين.

عنوان المقال : أمتنا أمام الحضارة المؤحِّدة حوار أم صدام ؟	الكاتب : د. العربي بوعياد

الزمان والمكان، إذ يكون تَحَقّقُ الحضارة بالحضور في الزمان بوصف الفعل التاريخي، وبالحضور في المكان بوصف الفعل العمراني على أعمق وجه و أوسع نطاق. إلا أن الحضارة التي تجمع بين الفعلين في هذا العصر هي الحضارة الغربية. وما دام الأمر كذلك، فمفهوم "حوار الحضارات" غير ذي موضوع، إذ لا حوار بين حضارة قائمة وأخرى ماضية. وكل ما هو ممكن، هو قيام حوار بين الحضارة الغربية والثقافات الأخرى، بما فيها ثقافة أمتنا باعتبارها دائمة الحضور في الذاكرة.

من هنا أدعو كلَّ مسلم في أي مكان من عالمنا، أن يعيَ أنه في موقف مَن هو أقوى وأعلم وأهدى من غيره، وهذا الغير هو إنسان جاهل بقيمه التي تجعله يحقق إنسانيتَه بكماليتها. يقول جل وعلا في سورة الزخرف:

{.. ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون..} [الزخرف:٣٧،٣٦]

علينا أن نتسم بأخلاق العالِم المُنقِذ أمام متعلّمٍ هالِك. نواجههم بالإحسان ونعلمهم ما يجهلون. وإمكانية انبعاثِ حضارتِنا قائمةٌ ما دامت الدعوة آخذةً طريقَها، والداعية إلى الله ميسِّر ومبشِّر، يدخل من باب الفضل أكثر من باب العدل. فتكون عودةُ الآخر عودةَ توبةٍ ومراجعةً لأفعاله واعتذاراً منه عنها وتكفيراً لها، وهذا ما عبّر عنه كلام الله تعالى في سورة فصّلت:

{ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين . ولا تستوي الحسنة ولا السيّئة ؛ ادفعْ بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم .وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم..} [فصلت: ٣٣-٣٥]